# الافْتِتَاحِيَّة

## العمران الإنسانيّ مِنَ المنظور القرآنيّ

على الرّغم من مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا على ظهور الدّعوة الإسلاميّة وبزوغ فجر الإسلام، لا تزال الدّراسات عن القرآن الكريم، مِنَ الجوانب الفقهيّة والتّاريخيّة واللّغويّة والاجتماعيّة والفلسفيّة والنّفسيّة وسواها، تحتلّ جانبًا مهمًّا مِنَ الدّراسات والتّخصّصات الأكاديميّة، حتّى في كثير مِنَ الجامعات العالميّة.

وإذا كانت الدّراسات الاستشراقيّة في القرن التّاسع عشر قد ساهمت في التّأسيس لهذا الاهتمام بالدّراسات القرآنيّة، فإنّ التّحوّلات الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة التي حصلت في العقود الماضية، منذ مطلع التّسعينيّات من القرن العشرين، مع صعود ما عُرِفَ بالصّحوة الإسلاميّة، وما حملته هذه الصّحوة من اتّجاهات، قد حفَّزَت العودة في الأوساط البحثيّة والأكاديميّة المختلفة إلى دراسة القرآن الكريم، وما جاء في متنه وآياته، والقصص التي أوردها، والسُّنَن التي أشار إليها عن بناء المجتمعات وتنظيم العلاقات بين النّاس، ومبادئ الحرب والسّلم، والتّعامل مع الآخر المختلف، ومسوّغات اللّجوء إلى العنف، وكيفيّة انتظام العلاقة بين الفرد والمجتمع، ومع النّظام والقانون، ونظرته إلى العدالة وسُبُل تحقّقها، وما ينبغي القيام به لرفع الظّلم عن النّاس. خصوصًا، وأنَّ ما بلغته التّجربة الحضاريّة الغربيّة مِنْ

أزمات ومآزق إنسانيّة، وتراجع في منظومة القِيَم التي ادَّعَت عالميّتها، شجّع على العودة إلى سؤال الدِّين الذي افتقده الغرب في معالجة تلك المشكلات والأزمات.

لم تكن العودة إلى القرآن يسيرة لاستنباط ما في نصوصه مِنْ قِيَم تُبنى على أُسُسها المنظومة الحضاريّة لأيّ أُمَّة مِنَ الأُمم. فقد اكتفى بعضهم بالجوانب الفقهيّة، وما تهدف إليه مِنْ تشريع لحلال السّلوك وحرامه، ومنهم مَنْ ذهب إلى معجزات القرآن اللّغويّة أو العدديّة. كما آثر بعض الفقهاء تجنُّب الخوض في أيٍّ مِنَ المشكلات السّياسيّة أو الاجتماعيّة، في الوقت الذي بذل فيه علماء وباحثون جهودًا حثيثة؛ لتقديم بديل عن النّموذج الغربيّ في إدارة شؤون الإنسان والمجتمع، استنادًا إلى رؤية حضاريّة إسلاميّة، وإلى فهم الكيفيّة التي صاغ بها القرآن الكريم مجتمعًا إسلاميًّا ناشئًا، من حيث القِيَم، والبنية الاجتماعيّة، والعلاقات الإنسانيّة، والهُويَّة الجماعيّة، بالإضافة إلى تشديده على القِيَم الاجتماعيّة والإنسانيّة؛ مثل العدل، والشّورى، والتّكافل، والرّحمة، والصّدق، والأمانة، وغيرها مِنَ القِيَم التي نظَّم بها القرآن العلاقات بين أفراد المجتمع.

لقد بُذِلَت الجهود العلميّة والفقهيّة والبحثيّة عبر الحوزات والمؤسّسات الأكاديميّة في العالم الإسلاميّ، وجامعات غربيّة عدَّة لدراسة المضامين والأُسُس التي وضعها القرآن الكريم حول العدالة الاجتماعيّة، أو حول الموقف مِنَ الفقر والغنى، أو الاستغلال والثّروة، ووضع القرآن أُسُس القيادة السّياسيّة أو الاجتماعيّة، وطاعة وليّ الأمر... والمقصود من ذلك كلّه، محاولة تبيين البُعد الحضاريّ للعمران الإنسانيّ الذي أسَّس له القرآن الكريم.

وكان من الطّبيعيّ أنْ تُعقد المقارنات مع أنموذج العمران والتّقدُّم الغربيّ، الذي عَدَّ نفسه أنموذجًا عالميًّا متقدِّمًا، على باقي المجتمعات والشّعوب أن تُقلّده وتحذو حذوه في المسارات التي سلكها، والأهداف التي وضعها لنفسه وللإنسان وللعمران والتّقدُّم. وكان الهدف من هذه المقارنات التّأكيد على أنَّ الأنموذج القرآنيّ الإنسانيّ هو البديل عن المآزق التي وصلت إليها الحضارة الغربيّة، والتي يذهب بعض المفكّرين الغربيِّين إلى أنَّها لم تُقدِّم أصلًا أيّ أنموذج حضاريّ.

يبدأ الاختلاف مع الأنموذج الغربيّ في تحديد ماهيّة هدف الإنسان مِنَ الوجود في هذه الحياة. ففي الوقت الذي يبدأ فيه الغرب حداثته وعمرانه الإنسانيّ بقطع الصّلة مع الخالِق، والدِّين، والغيب، يُحدِّد القرآن الكريم هذا الهدف بمهمّة الخلافة

في الأرض. وهذا أساس العمران الذي ستُبنى عليه منظومة كاملة من علاقات الانسان مع ذاته، ومع الآخرين، ومع الطّبيعة، تحت ظلال مهمّة التّكليف بالخلافة، التي يجب أن يتحلّى فيها الإنسان بالمواصفات الإلهيّة الأخلاقيّة والتّراحميّة، وأن يعمل من أجل تحقيق العدل، ورفع الظّلم، وعدم الاعتداء، واحترام كرامة الإنسان... لا أن يكون هدف العمران وفق الأنموذج الذي قدَّمه الغرب خلال قرنين مِنَ الزّمن هو الاحتلال والهيمنة، ونهب ثروات الأُمم والشّعوب، وتعزيز الفردانيّة وتفكيك الأسرة.

بدأ الأوروبّيّون، في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر للميلاد، بإرساء أُسُس حضارتهم الجديدة. ولأنَّ فكرة هذه الحضارة قد انقطعت عن اللّه، منذ انطلاقها، فقد استخدموا مختلف الوسائل بلا وازع لبنائها. هكذا سوَّغوا احتلال بلدان شعوب أخرى، ونهبوا ثرواتها، وطوَّروا قدراتهم وعلومهم، التي تحوَّلت من خدمة الإنسان إلى خدمة التّوسُّع والسّيطرة.

هذا ما فعله الأوروبّيّون طوال أربعة أو خمسة قرون. هذه الحضارة التي عرضوها على العالم قدَّمت تجلّيات جميلة مِنَ التّقنيّة والسّرعة والسّهولة وأدوات الحياة، لكنَّها لم تُوفِّر للإنسانيّة السّعادة، ولم تُحقِّق لها العدالة. لا، بل سنشهد ألف حالة وحالة مِنَ الطّغيان، والاحتلال، ومساندة الظّالم، بدلًا مِنَ العدالة المتوقَّعة، حتّى انتبه كثير مِنَ الفلاسفة وعلماء الاجتماع الغربيِّين إلى المسار الانحداريّ للأنموذج الحضاريّ الغربيّ، الذي فَقَدَ المعنى والهدف، وأصبح خاويًا على عرشه.

لا يمكن أنْ نتجاهل التّقدُّم المهمّ الذي أحرزه الغرب في المجالات الطّبِّيّة والهندسيّة والتّقنيّة، إلّا أنَّ ذلك على الرّغم من فضائله، لا يُعدّ معيارًا له الأفضليّة على المعيار الإنسانيّ والأخلاقيّ، الذي وضعه القرآن الكريم للعمران الإنسانيّ. فلا يفصل القرآن في جوهر رسالته، بين التّقدُّم في تلبية ضرورات الحياة وحاجات الإنسان، في مجالات الطّبّ والزّراعة والعلوم، وتحسين نوعيّة الحياة والخدمات، وبين الأبعاد المعنويّة والكدح الذي يقوم به الإنسان نحو ربّه؛ ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[1].

إنَّ كلّ تقدُّم في أيٍّ مِنْ مجالات الحياة يُفترض أنْ يَسترشد بذلك التّكليف الإلهيّ بنشر العدل، والتّراحم بين النّاس، وبحماية كرامة الإنسان، وحماية الطّبيعة،

1- سورة الإنشقاق، الآية 6.

بحيث لا يتفلّت التّقدُّم من تلك الأهداف الإنسانيّة؛ ليتحوَّل إلى طغيان واستبداد بيد قوى الهيمنة والسّيطرة، كما حصل في التّجربة الحضاريّة الغربيّة. وليصبح العمران في المنظور القرآنيّ مشروعًا متكاملًا يجمع بين الأبعاد المادِّيّة، وبين الأبعاد القيميّة والأخلاقية والإنسانيّة.

لا يُهمل القرآن الكريم العمران بما هو التّشييد والبناء والتّنمية في المجالات كافّة، سواء المادِّيّة (المباني والطّرق) أو المعنويّة (العلم، العدل، والتّقوى).

قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1]. وكلمة ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ تعني طَلَبَ منكم إعمارها؛ أي أنَّ اللّه جعل من عمارة الأرض غاية من غايات خلق الإنسان. ولأنَّ العمران متعدِّد الأوجه، فقد تعدَّدت المدارس والرّؤى في البحث عن أُسُسه ومرتكزاته، خصوصًا وأنَّ القرآن، كما أشرنا، لا يفصل بين البُعد الإيمانيّ العقائديّ الغيبيّ من جهة، والبُعد الأرضيّ الاجتماعيّ من جهة ثانية؛ لأنَّ انفصال الإيمان، من وجهة النّظر القرآنيّة عن المجتمع لن يؤدِّي إلى العمران، وكذلك انفصال المجتمع عن الإيمان، كما حصل في التّجربة الغربيّة.

وإذا كان أساس الإيمان الاعتقاد بالغيب والتّكليف بالخلافة، فإنَّ أساس البُعد الأرضيّ، سيكون هو التّكليف بالبناء الأُسريّ الذي يوليه القرآن الكريم أهمِّيّة كبرى في عمران الحياة الإنسانيّة والعلاقات الاجتماعيّة.

أمَّا البُعد الذي يربط بين الغيب والمجتمع، فهو البُعد الأخلاقيّ، الذي من دون حضوره وتحقّقه، سيفقد العمران الإنسانيّ والحضاريّ أهمّ مرتكز يتيح ديمومة أيّ حضارة مِنَ الحضارات الإنسانيّة.

ولذلك، ستكون أوّل خليّة اجتماعيّة تشكّلت منذ وجود الإنسان، بحسب كلّ الرّوايات الدّينيّة، وحتّى الأنثروبولوجيّة، هي الأسرة التي بدأت بزوجَيْن (آدم وحواء)، بغضِّ النظر عن الاختلاف في رواية وجودهما وخَلْقهما بين الكتب السّماويّة. المهمّ، أنَّ أوّل خليّة تأسَّست هي خليّة الزّوجيّة، التي ستكون نواة تشكُّل المجتمع. ما يعني من وجهة النّظر هذه، أنَّ العمران الحضاريّ لا يمكن أن يُختصَر بالفردانيّة، بل هو وجود هؤلاء الأفراد في مُنتظم اجتماعيّ. وهذا ما ستصبح عليه المجتمعات لاحقًا عبر تجاربها الطّويلة، بحيث سيكون الأفراد بداية في منتظم الأسرة، ثمّ في منتظم جغرافيّ، أو سياسيّ، أو تعليميّ، أو دينيّ، أو قبائليّ، أو عرقيّ،

1- سورة هود، الآية 61.

أو غيره من الانتماءات التي عرفتها المجتمعات الإنسانيّة عبر تاريخها وتحوّلاتها.

وسوف نلاحظ أنَّ العلاقات التي يؤكّد القرآن الكريم على تنظيمها وترتيب أولويّاتها هي أولويّات أُسريّة، التي رُبَّما تعود إلى أولويّة الخليّة الأسريّة في المجتمع الإنسانيّ، لينتقل بعدها إلى العلاقات الاجتماعيّة بمستوياتها المختلفة؛ الاقتصاديّة، أو الإداريّة، أو التّربويّة، أو غيرها ممَّا يتعلَّق بحياة الأفراد وعلاقاتهم في الأُطُر الاجتماعيّة التي يعيشون فيها. وهذا هو الأساس الاجتماعيّ من منظور العمران الحضاريّ القرآنيّ، الذي تنتظم أُسُس العلاقات بين أفراده على أولويّة القيم الأخلاقيّة والعدالة الإنسانيّة.

وتُمثّل هذه الآية أنموذجًا وترتيبًا للقيم الحضاريّة في العلاقات الإنسانيّة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

ولهذا السّبب، ومن منظور هذا التّرتيب للقِيَم الحضاريّة في العلاقات الإنسانيّة، فإنَّ القاعدة الأساسيّة للحضارة، لا تقوم على الصّناعة والتّكنولوجيا والعلم، بل على الثّقافة والرّؤية والمعرفة والكمال الفكريّ البشريّ.

لذلك، يُعدّد بعضهم مقوّمات العمران الحضاريّ في القرآن الكريم، فيرى أنَّها رؤية شاملة تقوم على:

- الإيمان والتّقوى؛ لأنَّ العقيدة الصّحيحة هي الأساس في بناء حضارة عادلة، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2].
- الأخلاق؛ بما هي أساس البعثة النّبويّة والدّعوة القرآنيّة، كما رُوي عن الرّسول الأكرم ﷺ أنَّه قال: «إنَّما بُعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق»[3].

---

1- سورة البقرة، الآية 177.

2- سورة الأعراف، الآية 96.

3- محمّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط3، بيروت، دار إحياء التّراث العربيّ، 1983م، ج 68، ص 382.

- العلم والمعرفة؛ لفهم سُنَن اللّه في الكون وتطوير الحياة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ ﴾[1].

وعليه، كلّما زاد علم الإنسان ومعرفته يستطيع أن يستثمر ما سُخِّر له في هذا الكون، فيزدهر البناء الحضاريّ في المجتمع الذي يعيش فيه، وبقدر الزّيادة في العلم يكون الإسهام في نفع الإنسانيّة، والتّقدُّم في جميع المجالات الحياتيّة. خصوصًا، وأنَّ العلم يمكن أن يُعالج المشكلات ويُنمّي القدرات التي تحتاجها أيّ حضارة.

وتاريخ الحضارات يدلّ دلالة قاطعة على أنَّه كلَّما اهتمَّت أُمَّة بالعِلْم ازدادت تقدُّمًا، وهكذا كان حال المسلمين الذين شيَّدوا أعظم حضارة عرفتها البشريّة، عندما أقاموا المدارس العلميّة والصّناعات المختلفة، وابتكروا المناهج العلميّة، عندما كان باقي العالم يغرق في لُجَج الجهل والظّلام. كما يدلّ على ذلك واقع المجتمعات الغربيّة التي اهتمَّت بالعلم وتطويره، والإنفاق عليه، من أجل بناء حضارة السّيطرة والتّفوُّق.

- العدل؛ بما هو أساس استقرار المجتمعات ونموّ الحضارات، حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[2].
- العمل والاجتهاد؛ لأنَّ التّقدُّم والعمران يحتاج إلى بذل الجهد والتّعب والصّبر والتحمّل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾[3].
- أمَّا ما يُخشى منه على العمران، فهو الفساد الذي حذَّرَ منه القرآن الكريم، والذي قد يُدمّر كلّ ما بُني بالعمران، كما حصل في كثير مِن تجارب الحضارات عبر التّاريخ، وهو الذي تعاني منه كثير من المجتمعات المعاصرة، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[4].

إنَّ ما يُشكِّل القاعدة الاجتماعيّة للبناء الحضاريّ القرآنيّ، هي الأسرة ابتداءً،

1- سورة الزّمر، الآية 9.

2- سورة النّحل، الآية 90.

3- سورة التّوبة، الآية 105.

4- سورة الأعراف، الآية 56.

والتـي يُفتـرض أن تؤسِّـس لنمـط حيـاة فـي البسـاطة والرّضـى والقناعـة والتّواضـع، استجابةً للهدف الـذي نتطلَّع إليـه مِـنَ الوجـود. وهـذا الهـدف هـو الـذي سـيُحدِّد بـدوره كيـف يكـون الاقتصـاد فـي خدمـة النّـاس، وكيـف يكـون العلـم وتحصيـل المعرفـة لحمايـة الإنسـان، وكيـف يكـون التّمسُّـك بمنظومتنـا الأخلاقيّـة فـي علاقاتنـا كافّـة، مـن أهـمِّ الأُسُـس لبسـط العـدل وحمايـة العمـران الحضـاريّ.

طلال عتريسي